

مضائق الفكر ومسالك الاضطرار

الدكتور محمد عبد النبي

كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر

لا تزال النخب تجادل في أنجع السبل للخروج من اتفاق تزداد ظلمتها كل حين ، وبعض من سعى للعلاج غدا جزءا من السقم ، وبعض من جاهد من أجل البراء شعارا أعطى الولاء اضطرارا، والذين كفروا بالولاء، سبيلا لإزالة العيب، استبطنوا النصر فكفروا الأنصار، وانجرف دعاة التعقل في مهرجان الحماسة، فأغوتهم موجة الشهرة، وولجوا بابا لم يترقوه، ودعا أنصار الحرية إلى الديمقراطية ، فلما أفاد منها خصم أفنوا بالتحريم، وجميع هؤلاء وغيرهم صوبوا سهامهم في البدء باتجاه واحد ، فلما تشاغلوا بالخصومة تفرق دم الشعوب على القنائل ، وخفت الوطء على الجاني المفترض .

ليس الأمر معينا أن يراجع مسلك أو أن يعاد النظر في أسلوب فيجتنب خطأ تكرر، أو يكسب موقع يقضي على اللفظ، ومن المحامد أن يطرا التجديد على فكر تتسع به مساحة الحراك، وأن ترتبط الفتوى-تغييرا- بواقع تتسارع أخطاه، فتحقق مقصد اليسر الذي ثبتت سنته، والذي يمجده الذوق والعرف أن تُدعى فاعلت تستجد، كلما تحسن المرء اتجاهها لكسب ثلوح بواتره، أو أثرا لمغانم يسعى لأصطيادها، وأشد من ذلك أن يُوصل لفكر لا يسمع الناس غيره، فإذا اضطر العلو صاحبه إلى أضيق السبل أسرع في التوصل، واستنهد له بما يحفظ ماء وجه أريق. لا ينبغي أن تسلم الرقاب -على المستوى الشعبي والرسمي- للأحداث والأغزار، تغريهم فكرة فينحازون إليها، أو تأسروهم منه فيربطون مصير أمة باليمن، تُساق الحجج لتأكيد النهج، وتسن القوانين لعقاب من خالف، وحين يعز للزعيم أن يبرئ تحت وطأة الإكراه، أو لسبب مزاج يتقلب، يجد من يظاھره، ومن يبرر له، وأثار التقلب تتحملة الأمة مرغمة، وقد تُحمل على التصفيق له.

ليس صحيحا أن تلاحق الجنائية-فقط- من تنفذ، نعم قد تعظم مسؤوليته، لكن البيئة تصنع نفس الأدواء، وإن اختلف حجم الإثم أو العدوان، وقد تكمن خلال

السوء، فإذا اعتلى المنصب تبتت، وبعض من ادعى التميز أظهر به سمنا وفكرا، فلما احتجج إليه لاقتسام لوم، أو تبرير مسلك، استجاب اجتهدا، ثم عوجل بالمعتم، فتغير سمت، وخفت نيرة، ومن خلط في البداية أوغل، حتى فاق عن ألف، وتحولت السهام باتجاه وافد غر، تلحقه العناية، فيؤصل ويشير، حتى يتفرد بالحمل برهقه، ويكتفي من رشحه، بالمشهد يريجه، ويؤنسه.

لن يحمي الشعار المرفوع-مهما أبرقت صفحته-تابعاً أساء، ولن تتخلف السنن عن ملاحقة من قصر، ولو كان مؤمناً، " نيس بأمانتكم ولا أمانتي أهل الكتاب.. تماماً كالعطاء لن يمنع في الدنيا عن أحد بدعوى الجحود والكفران كلا تمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان ربك محظوراً."*

ينبغي أن نفر بأننا فضلنا في إقتفاء آثار السنن الكونية، التي لا تحابي أحداً، وبعضنا لا يزال يعاند صرامة فيها لا تتخلف، ولو فُتّر لسنة أن تتخلف إكراماً لأحد لتخلفت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، في تخفيف العناء وتقريب النصر والظفر، كما أننا لم نفرق بين الكرامة الفردية التي يمن بها الله على البعض، وبين الكرامة الجماعية التي ينتظرها الناس حتى وإن ضلوا السبيل.

إن الإصرار على الخيبة التي تلاحقنا أو تلاحقها سببه -في كثير من الأحيان- انتصار لنفس أهينت، أولبت عليها الإهانة، فقامت تستجلب الأنصار لتتقما، تكسوه بغير رداء، ترغيباً وتعبئة، وأذهلها مزاجه عن مبادئ انتدافع وأجنديات الصراع، فراحت تقدم غير هياية ولا وجلة، تغريباً مواقع حيزت، أو أعطيت، لإكمال استرجاع ثعلم نهايته، ويقدر من يملك الزمام عواقبه، فيترقب القطاف حين ينعه.

لست ممن يحشره الموقع فلا يبصر غير ما يعيب، ولا ممن تدفعه الخصومة فيترصد للزلل، يلوم به من زلت به القدم، ويسحبه لنفسه، أو جماعته، رصيدا يباهي به من جحد، ولكن التحسب للتعثر، والتنبؤ بالمأل-إشفاقاً وخوفاً-من خصال من عقل، وعواقب التسرع قد تصيب غير من تسبب، ولو كان الجزاء على قدر الجناية والجاني لتسنى للبعض ألا يبالي، ولكنه المركب الذي يسمع الجميع، ولا يتأني فيه إهمال من يعبث بالقاع، نحججا بالشعار، والنجاة من العرق لا تتم إلا بالأخذ على يد من عبث.

إن من عوائق المسار التي تحجب عنا الحياة الكريمة وتمنع العطاء-ولو تحت غير الظلال التي ينبغي أن نحبس النفس والفكر على رؤية لا نرى في غيرها

ميدانا لصواب، أومجالا لحراك، يتلو النظر-ضرورة-أن يُعتقد بالأ سبيل إلى نجاة
 إلا بإزاحة 'الباطل'، والتفرض على كرسية ليغدو الحق المطلق الذي لاحق سواه.
 بعض التجارب في العالم الإسلامي لا تسمح لهذا الوهم أن يستمر، بل تدفعه
 للناسي، وإقامة ما أمكن من الشعب في ظل الممكن والمتاح-هو الذي يخفف من
 أحمال النظريات وزحام الاضطراب، الذي يحيل الحياة أشبه بجحيم لا يحتمل، حتى
 ولو أريد التخفيف من سطوته بالحلول الجزئية، أو بالوعود التي يستحيل الوفاء بها،
 وإن التعود على التعاش في ظل مثل هذه التجربة-يقضي على أوهام التفرد،
 وادعاء احتكار الحق والصواب، وغناء التراث الذي ورثناه كفيل بافئاع من تردد،
 إذ لم تحفظ حضارة حقوق الأقليات فيها كما فعلت الحضارة الإسلامية، والمناصب
 التي نقلها البعض من هؤلاء تسبق كل القوانين التي يتبجح بها قتلة الأطفال
 والشيوخ قديما وحديثا.

إن الترتيب الذي يحرم الالتزام بالشعب الأدنى، أو يخليه من الجدوى ترتيب
 لا يقفد إلى الشرعية فحسب، بل يضاعف من العنت الذي قد يؤول بأصحابه يوما
 إلى التحلل، وأغرقت الأحداث بمقارنات بين مرتد مفترض وكافر أصيل، أغفلت كل
 الفروق، لتفصح الطريق لاستنتاج لا يرى في غير الخروج حلا، قد كانت أولى
 مراحلها وأسهلها استباحة لمحرمات الأنفس والأعراض، تريد النيل من الهدف
 السهل، يزاح من الطريق ابتداء، للوصول إلى من تترس، وهيهات.
 من الفضائل أن يرجع من أخطأ عن ذنبه، وأن يقر بذلك، فيغير من أسلوب
 أضر بالدعوة والدعاة، ولكن أن تتم العودة بنوع من التبرير بعيد الاعتبار، أكثر
 مما يشير إلى الجنائية، فهو إقرار شكلي يلغ صاحبه عليه، وينسب محمداً إلى
 النفس قد لا يستحقها.

فمن مقدمة "المراجعات" التي أعلنت، يقول كاتبها مخاطبا من يتوقعه يعترض
 على اجتهاد جديد ينتكز فيه لما سبق: "...ونرجو ألا يصددهم عن هذه الدراسة أن
 يقول قائل: لماذا غيرتم اجتهادكم وفتواكم اليوم في بعض المسائل (إن هو اجتهاد-
 حتى ولو كان المجتهد من ذوي التخصصات العلمية-فيستحق صاحبه الأجر حتى
 وإن سبب اجتهاده في المأسي والفتن؟ ولا تظنوا أنه في النهج كله، بل هو في بعض
 المسائل، فلا يصدق عليه وصف الانقلاب الشامل)- نقول لمثل هذا السائل: إن
 المعصوم الوحيد هو الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن كل إنسان يؤخذ من قوله
 ويرد، سوى المعصوم صلى الله عليه وسلم (أي فلنأخذ أول ولا آخر من أخطأ) وإن

الحق أحق أن يُتبع.. وأن من هم خير منا من أئمة السلف قد غيروا اجتهاداتهم وفتاواهم (أي فلسنا في الأئمة بدعا في ذلك) فهذا الشافعي يغير بعض اجتهاداته وفتاويه (كذا) بعد قدومه إلى مصر، وأصبح له مذهبان: القديم والجديد (ونحن كذلك، فاعتبروا هذا التغيير في المواقف من هذا القبيل، ولا يضر أن مذهبه القديم لم يترتب عليه فتنة ولا دماء كذهابنا) وهذا الإمام العظيم أحمد بن حنبل له في بعض المسائل عدة أقوال، كل قول ينقله إمام من تلاميذه عنه، ولم يغير هؤلاء الأئمة اجتهاداتهم عن هوى أو شهوة، ولكنهم غيروها على أسس علمية سليمة، وقواعد شرعية ثابتة (وهكذا أصبح مذهب هؤلاء هو الذي يحتاج إلى تزكية، وعلى أيدي أصحاب المراجعات) فالمجتهد له أن يغير فتواه إذا رأى المصلحة في ذلك، وهذا دليل قوة، وليس دليل ضعف.. (وهكذا يراد للإقرار أن يكون ذريعة لاستعادة القوة، وليس الترياق فقط، وسيرى القارئ أن العنوان يندرج ضمن هذا الإبقاء، فلا يزال العمل الذي يخضع للمراجعة يحمل اسم الجهاد): (تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء: 20-21)

إن الرضى عن بعض من دين بالردة، وخلع أوصاف الشهادة على من قتل، بعد أنهار من الفتن والدماء يقتضي الانسحاب والتوبة، ولا ينبغي أن يكون طريقا تُسبم مواقع عليا في الاتجاه المعاكس، وينبغي أن تسود ثقافة الاعتراف بالخطأ، والإقرار بالخطيئة، بدلا لثقافة الإصرار وعدم التنازل.

إن المكاسب التي تُسبب إلى طوائف منا في بعض البلاد سرعان ما التفت عليها فتن أنت على أحضرها، وكيود تغذي وتتقمم، وراح يريق النصر يتوي، بخطفه من قدر، ويجعل مجاهد الأمل إلى مطارد لغنيمة بلعن، أو فريسة لحليف تطاردها قوانين سنت على عجل.

لقد أثر عن بعض من حمل المشعل، يبشر أتباع المشروع بقرب تحقيقه، لفظه لتجارب مرت، ونقيه لإنجاز تحقق، بأسلوب فيه من التيكم والغجب ما تتصاغر أمامه تصريحات أتباع المشاريع الأخرى، ولولاستطيق التاريخ القريب، وتقط إشارات العقلاء لتحاشرى الشرك التي نصبت ابتداء، ولما سُمح للمأسى أن تتصاعف وتتكرر، ولكنه الزهو والكبر حين يتسأل إلى نفس الضعيف، فيحيله نمرا من ورق.

ولقدّر لأخرين أن يتواضعوا فيقرعوا تاريخ الرجال لئلا أغرامهم وهج النصر في بعض المواقع بعقد القياسات الخاطئة، ومزاج الظفر على السوفيت الذي دفعهم إلى إعادة التجربة في الداخل، ارتدوا به على الأعقاب، ونقص الرصيد الذي جمع، أو أنف، فطرقوا بالأمة بابا للفتنة لا يزال مشرعا، ولا يزال العدو سحجة إغلاقه - يدمر كل شيء في طريقه.

من الذين تقطنوا لمزالق القوة فلم يستجيبوا لإغراء التجربة: المجاهد العلامة بديع الزمان النورسي، حيث أثر في المذهب الجديد نهج التربية الذي مجرد الخصم من مبررات تُفعل، ورفض الأسياق خلف مغامرة تحسب لعال فيها لا تُحتمد عواقبه، بالرغم مما اكتسبه من تجربة الصراع ضد عدولا خلاف في عدالته، وبالرغم من تورط الخصم الجديد في مناهضة عقيدة الأمة، مما كان سيوجب له الحليف والنصير، ويضفي على الخطوة تفهما، وإن لم يرق إلى مستوى النصرة الفاعلة، التي تواجه حالة الإبادة المتوقعة.

لقد كان من وسائل البعض للإفحاح أن يلعن تاريخ قريب حافل بالعبير، وأن تدغدغ عواطف جماهير، تؤشك أن تصنع تاريخا جديدا، فإذا بالتاريخ يستغفها، ويعيد نفسه، على غير ما يعتبر، لتعيد الكوارث والمحن لنتاج نفس البلاء، ولتضرب الخيبة من جديد أنصار تغيير تمنع، فتعنى البعض بما كان بالأمس يلغنه.

لقد حملت بعض الأحاديث على جوانب لا يضر كثيرا أن تُغفل، فالعلوفى العيادة - على المستوى الفردي - يعود بالأثر السلبي على صاحبه، والمبالغة في الحب والبغض لا تمن إلا جاهلا أو صاحب هوى، لكن التدين المتين - على مستوى المواقف العامة والخيارات الشاملة - الذي لا يوغر فيه برفق، والعواطف الجامحة التي ينثني عليها ولاء أوبراء أودت بالكثيرين إلى الهلاك، وطبعت واقع الأمة بغير قليل من الفشل المتبوع بالخيبة واليأس. والمصحوب بالشتائم واللعنات.

ما الذي يعني أن ينقلب زعماء على أنفسهم وتاريخهم، فيمنح الذوق مواقف لهم تستجد، لا علاقة لها البتة بما كان يرفع من شعار، أو يعلن من خصام، بل يتطوع أصحاب الحناجر والحناجر بتقديم خدمات قد يستحي من تقديمها عميل مستأجر، ويضفي التعقل والواقعية على سلوك أقل ما يوصف بأنه يخضع لمزاج من يشعر بامتلاك البلاد والعباد.

وما الذي يعنيه أن ينقلب حماة المشروع الواحد إلى أعداء، يسجن بعضهم بعضا، ويلعن أحدهم الآخر، ويظل كل منهما يدعي حماية المشروع ورفع رايته.

وقيل ذلك نُداس قيم باسم المشروع ذاته، قد يتفق عليها كل الناس، ولا يُكتفى برفض جوار من لجأ، بل يُحتكى بالبعض حتى يبلغ المأمَن، ثم تُقضى الإجارة لحساب صفقة تختلط فيها ضرورات الإكراه، بشيوات نفس تميل إلى الجاه والمال. إن ادعاء رعاية مصالح الأمة بهذه الطريقة لا علاقة له بمراعاة المصلحة الشرعية، ولا يمت بصلة إلى "المراجعات" المدعاة، التي تدخل ضمن دائرة النقد الذاتي الذي اُثِمنا بالنتكر له، فإذا بالبعض يتنزع به ليلغي تاريخاً صنعه، ومساراً خطته يمينه، بالرغم من اعتراض من عقل، واتيم حينها بالجبن والخور، والانحراف عن حدود الشرع ومنهج الرواد.

لقد مرت على البعض عقود في مواقع القيادة، ورفض التغيير بحجة الإجماع، وإنما هي شيوة التصدر تتربع على القلوب، تتأى بالتأويل عن إشارة استهجان، وتبغى بالبقاء مسايرة نفس تتحدث عن التداول ولا تأتيه، وتلعن نفرد الأغيار وتمارسه، وما لم تضبط نوازغ التسلط قوانين رادعة في ثقافة من يدعي التغيير، فسنبقى ثقافتنا مرتعاً لكل مغامر يدعي الإصلاح.

لا أزال أدعي أن البعض قد استدرج للنزال، وبانت عاقبته، وهناك من استدرج لساحات أخرى، عاجلته بلذائذ لم يكن له بها عيد، تبرجت له، فاستجاب، ولم يخالطه حرج، أوتنازعه ريبه، يحصر التبرج في امرأة تريد أن تصرعه، قد تحسب لها، فأمن، فلما سلكت غير الجادة، وتأنطت له دنيا أقبنت، أقبل، باسم الدعوة تارة، وباسم مصالحتها تارة أخرى.

لقد سقطت هالة التقديس التي صاحبت ظروف النشأة، وغدا المتدين بشراً يجب ويكره، يسمو وبهوي، يخطئ ويصيب، وهو أمر محمود، غير أن الخلطة والإيغال فيها أوقعه فيما يقع فيه غيره، وقد يزيد، ذلك أن الآخرين أصبحت لهم - يحكم الثعوب - أعراف لا يتجاوزونها، أما صاحبنا فقد فوجئ بالمراحل تخفي، ليجد نفسه ومن معه في مواقع لم تراوده في أحلام الصبا، فانصب ينهل منها خوفاً من الفوات، يحدوه طمع في البقاء، يظاھر به بما تبسر من سبل، لتتحقق غرض يسبق عليه - كالعادة - مسحة يعدد بنا سهاماً تطيش أو تصيب.

إن مسايرة وجدان الأمة واجب لا مرأى فيه، وكلما ازداد العدو شراسة كلما ازداد هذا الوجدان اشتعالاً، وتزكيتاً على الدوام، أو الاستجابة لمطالبه في كل مكان، أو مجازاته لحيازة مغنم مؤقت أضرت بسير تسلل به العمل الجاد في الغرب إلى مواقع مشهودة، واقتحم أبواباً لم تكن في الحسبان.

لأن يضارَّ العدويشيء أكثر من أن تُسحب منه مبررات للهجوم، يملك التصرف فيها دوماً، وكلما صرخ المغبون أمدّه بما يضاعف من صراخه، ولو خفت الصراخ، وتحولت طاقته إلى عمل هادئ لا تنتفض، ولا تزال أجنادل في صدق الرواية الرسمية لأحداث سبتمبر الشبيرة، ولا تزال أعتقد أن من أولى ضحاياها هو العمل المنظم الذي شرعت في انتهاجه الأقليات العربية والإسلامية، وأخسى أن أجازف فأقول بأن من أهداف هذا الحادث هو الوجود الإسلامي ذاته، وما يلحق به بعض قادة الغرب-ويسارع "الطيبون أو الخيباء" للتخفيف من آثاره مراعاة للموقع وعملاً بواجب التحفظ-يصرح به مثل "توبين"، الذي حذر صراحة من هذا الوجود، الذي سينحاز حتماً إلى بلده الأصلي، في حال قيام أي نزاع مسلح أو حرب، كما صرح شارون بأن السبب في تنامي الشعور "ضت السامية" هو الوجود الإسلامي.

لقد بات المسلمون في الغرب يتخوفون من أي تصرف يحسب عليهم، ويلحق الضرر بما يتمتعون به من حقوق المواطنة، ومزايًا الإقامة، وبغض النظر عن المتسبب في الأحداث المذكورة فإن استغلالها أضحي مكشوفًا، والتنديذ بالمسلس بهذه الحقوق في أمريكا صار من الأولويات لدى بعض العقلاء فيهم.

بعض الناس تسعفهم الفطرة والخلق، فيستجيبون للتغيير، بمجرد التبشير به، وبعضهم لا يستقيم إلا بعضاً السلطان تقومه، وربط الإصلاح الشامل بالسلطة قاد إلى التحفز مسلكتاً، وإلى الاعتداء على الحريات وقايةً، ومن نجح في المسعى أخلف بالوعد، وغداً أسوأ ممن سبق، ومن أرك التوسل به والقفز على مشروعيته برره بالغاية تشرفه ونجمه، فخالق نهجا ينغني به، ويميزه عن الأغيار، وأما الآن قلم يعد يخضع الجدل بين موافق ومخالف، بل غداً وسيلة تمجيد الأعراف، ويقترّب القانون الدولي من تجريمها.

أزعم أن الأمر يحتاج إلى رأي حاسم يردع من يفكر في مثل هذا الأمر، وذلك لما يغلب عليه من مساوئ تصحبه، ولما يجره من قتن، ويلحقه بالامة من ضرر، ولما للجهة التي ألقت القيام بهذا الأسلوب من بنية يستحيل معها أن تفرط في مكسب، أو أن تتنازل عنه عن طيب خاطر، أو أن تحترم القيم المدنية، التي تفترق كثيراً عن قيم وضوابط يحبسها المجتمع المعاصر في نطاق ضيق، ويحددها دستور محترم، نجيزه أغلبية حرة فاعلة.

والامة التي يعاني ثمانون بالمائة من أفرادها من العقد النفسية-حسب بعض الإحصاءات-لا يمكنها أن تنصر فكرة أو أن تحمل مشروعاً-بهذا المستوى-

بأسلوب يقفز على كل المراحل، والإرث الذي تعاني منه يصعب إزالة آثاره أو التخفيف من وقعه بين عشية وضحاها، لتأهيلنا لتحمل المشروع ورعايته، مع أن الكثيرين فكروا أو سعوا لحمله وقيادته.

يقول رئيس المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية: لا يمكن أن يخضع مجتمع يكامله للعلاج، ولكن نستطيع أن نساعد (إذا أقررنا بهذه النتيجة) على التحرر كي يتوصل إلى مستوى من المسؤولية، ومن الوعي الذاتي، يمكنه من حل مسأله الشائكة. وتكمن مسؤولية المفكر العربي في أن يحرر ذاته أولاً من رواسب الموروث الثقافي الترجسي، لكي يتقل رسالته ثانياً إلى مجتمعه، في إطار علمي قابل للجدل. (صحيفة الحياة-10-04-2004)

لكن هذا لا يعني الانكفاء على التربية المجردة دون المزاومة- للوصول إلى التغيير المنشود، فهذا الاعتقاد يكاد يكون وهماً، يراد من توجس، أو تلهذ، تزداد بهما عزله، ويحتل موقعه، بحسب الشر قد توقف، بينما تقوى بالعزلة شرايته، ويدبته أن يلاحق الخير حيث حل، أو أن يمنعه من الوجود أصلاً.

إن احتكار الحق والصواب، ومسعى الإقصاء والتفرد بالساحة، من العوائق التي منعت التقدم حيناً من الدهر، وأحسب أن لا مقر من التعاون والتعايش، والقطيعة المدعاة التي ترتفع بيا عقيرة كل الأطراف ينبغي أن يخلو منها خطاب، لا يحسد الانتصار إلا بالوقعة في الخصوم، ولا يقم بناء إلا بتهديم أبنية الآخرين.

إن الاستجابة لنوازع النفس في ثلبية المطالب وتحقيق ما تطمح إليه نفوس الأموياء، في ظل ما يباح من هوامش تضيق أو تتسع، لا ينبغي أن يتعطل انتظاراً لتغيير أريد له أن يتخلف، والبدل المتع استجابة محدودة لمطالب البطن، يصحبا انسحاب نفسي يأس من حياة تنبثق بكرامة البشر، تتشأ عنه نزعة انتقام. تفرط فيما يحوزه المجتمع من مستنكات. وقد تتلقه.

الفكر الذي ننشئه، ونرود استنهاض الهمم به، يتردد بين نزعة غير توجهه، يرى العالم كله ساحة حرب، يقتل فيها العدو أو يذعن، وبين دعوة إلى المسالمة، لا تستثنى أحداً. حتى وإن عزى أو سلب، يستليمون تجزية اليودي، على وجاهة فيها قد لا تُسكر، ويديرون النظر لسيزة تعطي الحق في دفع المعتدي، وترتب الأجر الجزيل على الشجادة دون الأرض والعرض، وحتى المواثيق الدولية التي ينتكر لها الآن، تعترف بحق في المقاومة، وينكره علينا من يدعي السبق أو التجديد.